القصة حول العالم

بقلم : على شلش

الضحكة الأخيرة .. فى غرب افريقيا

ميرسركوك مثقف أمريكى زنجى يعمل أستاذا بجامعة هووارد . وقد تخصص فى آداب وفنون منطقة غرب افريقيا والبحر الكاريبى . ونال عدة درجات علمية من باريس وهاييتى وأمريكا ، وألف مجموعة من الدراسات القيمة حول آداب هاييتى وغرب افريقيا .. منها هذه الدراسة التى نعرض لها بعد قليل ، وتتناول موضوع القصة وفنونها وسماتها فى غرب القارة .. كما انه يشغل منصب رئيس المجلس التنفيذى للجمعية الأمريكيةللثقافةالافريقية.. وهى جمعية اسسها الزنوج الأمريكيون الذين شهدوا أول مؤتمر عقد بباريس للكتاب والفنانين الزنوج عام ١٩٥٧ .

لكن أية قصة يقصدها كوك بدراسته هذه التى جعل عنوانها «الضحكة الأخيرة» ؟ وما ميدان هذه الدراسة وما أداتها ؟؟

من المعروف أن الآداب الافريقية التى نشأت مكتوبة فى هذا القرن فيما وراء الصحراء الكبرى ارتبطت ـ نتيجة للسيطرة الاستعمارية ـ بثلاث لغات أوربية هى : الانجليزية والفرنسية والبرتغالية .

وقد استأثر كل منها بمنطقة نفوذ عبر هذه الرقعة الشاسعة التى تمتد فى أعقاب الصحراء حتى شواطىء المحيط فى أقصى الجنوب . فتركزت الانجليزية فى الشرق والجنوب وبضع بقاع فى الغرب ، وسيطرت الفرنسية على الغرب وجزء من الوسط وأجزاء أخرى فى الشرق . أما البرتغالية فتسللت الى عدة بقاع فى أقصى الشرق وأقصى الغرب معا . ومع هذا فثم ارتباط شرطى بين كل من هـذه اللغـات الثلاث وواحدة من الجهات الأصلية الأربع . فاذا جاء ذكر الجنوب على سبيل المثال يتلوه ذكر الانجليزية . أما اذا جاء ذكر الغرب فان ذكر الفرنسية سرعان ما يقفز الى الأذهان . ومن ثم يكون الحديث عن القصة فى الغرب حديثا أساسه اللغة الفرنسية التى سيطرت على السنغال والكاميرون ، وغينيا ومالى وغيرها من أقطار الغرب . وليس من الغرابة اذن أن تقتصر دراسة كوك على الغرب المتحدث بالفرنسية باعتباره موضوع تخصصه فى الوقت نفسه .

ونعود الى دراسة كوك فنجده يستهلها بقوله ان الفاص الفرنسي « برناردان دى سان بيير » (١٧٣٧ ــ ١٨١٤) صاحب قصة بول وفرجينى المعروفة انتقد فى كتابه « رحلة الى جزيرة فرنسا » فلاسفة عصر الاستنارة وأخذ عليهم تندرهم بمسألة خطيرة كالرق الزنجى · ولعله كان يشير الى بعض التعليقات الساخرة التى جاءت فى « روح القانون » لمونتسكيو مثل : « من المستحيل الاعتقاد بأن الله ــ بحكمته ــ وضع روحا خيرة فى جسد خالص السواد » ! ·· او فى « رسائل من امابيد » لفولتير مثل وصف البطل لافريقيا بقوله : « يا له من طقس جميل تتمتع به هذه السواحل الجنوبية ·· لكن ما أقبح السكان ! ·· يا لهم من وحوش ! ·· ان الطبيعة كلما أحسنت الينا أسأنا اليها · فليس ثمة أحد من هؤلاء الناس يدرك معنى الفن · وثمة سؤال يشيع بينهم ·· هو : « هل انحدروا من القردة ، أم ان القردة انحدرت منهم ؟ ! »

ومثل هذه النظرات الساخرة المتناقضة مع أفكار رسل الثورة الفرنسية ودعاة الانسانية انما تدلل على عدم التوازن الفكرى واضطراب وحدة النظر الى الأمور ، على عكس ما دعا اليه آخرون من أمثال لافاييت وهيجو ولامارتين وشولشر ممن خلقوا اتجاها انسانيا فى الأدب الفرنسى ·

بل ان السخرية لا تلبث مرة أخرى أن تظهر فى القرن الماضى على أيدى كتاب وقصصيين نادوا بالانسان ودعوا الى تعاونه وحبه لأخيه الانسان · ويكفى أن نضرب المثل بثلاثة من أشهر كتاب القصة فى ذلك القرن وهم بروسبير ميريميه وبلزاك وموباسان · فرغم أن ميريميه استنكر تجارة الرقيق فى قصة « تامانجو » الا انه استخف بتامانجو نفسه فى القصة ، وسخر من جهله ، وأظهره ولوعا بالغش والخمر ·· وبالمثل نجد بلزاك الذى عرف الزنوج بأنهم « أطفال بالغون » فيما كان ينطق به لسان فوتيران بطل روايته المعروفة « الأب جوريو » . أما موباسان فقد صور الافريقى لصا من آكلة لحوم البشر · وقس على ذلك ما فعله الكثيرون من أدباء فرنسا وقصاصيها ، وبصفة خاصة البعض منهم ممن انحدروا من أصول افريقية مثل اسكندر ديماس الأب الذى زار افريقيا وكتب عن هيرودوت والحيوانات الخرافية وغموض القارة السوداء ، وكل شىء خلا الحقيقة التى توضح أن بعض أجداده جاءوا من هناك ·· ففى روايته الوحيدة التى وضعها عن افريقيا بعنوان « جورج » نجد أن عشرة آلاف افريقى من العبيد ينسون كل شىء عن ثورتهم من أجل الحرية حين تقع أعينهم على براميل خمر فى الطريق · كما ذكر ان طموح الافريقى الزنجى لا يكاد يتعدى رغبته فى اقتناء مظلة ! ·· بل انه كان كلما تعرض فى رواياته الأخرى للزنوج ذكر الأكليشيهات المعتادة التى طفحت بها كتابات الأوربيين عن الافريقيين مثل : الكسل ، اللصوصية ، حب الخمر ، التهريج ، وكلها صفات الصقها مفكرو الاستعمار ودعاته بأبناء القارة فيما وراء الصحراء ·

وينتقل كوك الى مناقشة تاريخ القصص الافريقى المكتوب بالفرنسية فى غرب القارة ، فيذكر ان بواكيرها ظهرت فى فرنسا على يد رينيه ماران ، أحد أبناء غيانا

الفرنسية . الذى نشر عام ١٩٢١ رواية بعنوان « باتولا » حاول فيها أن يعتصر لأبناء قارته ، وأن يظهر فيهم انسانية لا تقل عما يدعيه لأنفسهم المستعمرون البيض . ويعد مارلن رائد كتاب القصة الافريقيين فى غرب القارة . وقد قال عنه ليوبولد سنغور شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها الحالى :

« لم يتحرر كتاب جزر الهند الغربية من محاكاة العاصمة الفرنسية ومن الخوف من زنجيتهم الا عن طريق رينيه مارلن » .

ومن التعبيرات الساخرة التى اشتهر بها مارلن ما جاء على لسان بطل قصة « دجوما » فى قوله يصف سلوك البيض ازاء قومه :

« يزعم البيض أن الزنوج يشبهون القردة ، ومع ذلك فهم يدعون القردة فى سلام » وفى الفترة من ١٩٣١ الى ١٩٥٢ ظهر عدد كبير من القصص والروايات التى اهتمت بتصوير الحياة فى الريف والمدن الصغيرة ، وشقاء الانسان الافريقى ، ونضاله من أجل التحرر ، وكان ذلك بتأثير « باتولا » ونجاح صاحبها من ناحية ، والتأثر بالأدب الفرنسى وأشكاله الفنية من ناحية أخرى ، وذلك دون فقدان الصلة بالبيئة الأصلية . فقد ألح الكتاب على التراث الشعبى ، ونهلوا منه وأفاضوا فى جمعه وتسجيله والانتفاع بدلالاته . وقلما خلت قصة من الأقوال أو الأمثال الشعبية ، كهذه الطائفة التى نسوقها على سبيل المثال :

- امنح حبك لامرأة ، لكن اياك أن تمنحها ثقتك .
- المرأة الجميلة تجر وراءها شقاء عظيما .
- السمكة الصغيرة لا يشغلها الضياع فى معركة بين كلاب البحر .
- ان الضبع الذى يبغى التهام صغيره يجد فيه طعما كطعم العنزة .
- قلم الله لا يحتاج الى ممحاة .
- لا يتحقق المرء من نفع الأرداف حتى يجلس .
- الأسنان المتآكلة لا تقوى الا على أصابع الموز المهترئة .
- لو كان العمل شيئا طيبا لتهالك عليه الغنى منذ زمن طويل .

وهذه الروح الساخرة الفكهة التى تشيع فى الأمثال وغيرها من أنماط التراث الشعبى لانعدم العثور عليها فى سياق القصص ، بل انها تشكل سمة بارزة وخصيصة أساسية لكتابات الافريقيين وابداعاتهم . ففى رواية « حكام الورد » لجاك رومين يقول البطل لأمه فى مرارة مصحوبة بسخرية :

« ان السماء هى مرعى الملائكة . وهم سعداء — لا يشغلهم التفكير فى طعام أو شراب . فلا شك ان لديهم ملائكة سود يتولون عنهم عبء الأشغال الشاقة ، مثل مسح السحب وتنظيف الشمس عقب هبوب العواصف بينما الملائكة البيض لا يشغلهم شىء سوى أن يغردوا كالبلابل طوال النهار ، أو أن ينفخوا فى النفافير كما فى الصور التى نراها بالكنيسة .. » !

لكن كيف نشأت القصة وغيرها من أنماط الادب المكتوب بالفرنسية فى غرب افريقيا ؟ ..

لقد تضافرت عدة عوامل أدت الى تعزيز هذا الأدب المكتوب بالفرنسية : وعلى رأسها :

● نجاح الشعراء الافريقيين الذين غمروا باريس وأوربا بأشعارهم القوية الأصيلة عقب الحرب الأولى مثل : ليوبولد سنغور وليون داماس وايميه سيزير وغيرهم من أبناء غرب القارة الذين تلقوا العلم فى العاصمة الفرنسية .

● تأثير الكتاب الأمريكيين الزنوج من أمثال ريتشارد رايت وشستر هايمن ولانجستون هيوز الذين ألحوا على الصلة القديمة المفقودة بين القارة وزنوج أمريكا .

● اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وأثرها فى انضاج الوعى القومى بأقطار القارة المغلوبة على أمرها .

● ظهور مجلة ودار نشر « الوجود الافريقى » التى كانت بمثابة حركة ثقافية واسعة النطاق أظهرت للعالم أكثر من خمسين كتابا ودراسة ممتازة للافريقيين الذين يكتبون بالفرنسية وكذلك اخرانهم زنوج أمريكا كما حدث ازاء هذه الدراسة التى نعرض لها .

● اشتداد حركة التحرر الوطنى واعتمادها على أبنائها المثقفين والكتاب .

ونتيجة لكل هذه العوامل السابقة انفسحت الطريق أمام أبناء القارة من الشعراء وكتاب القصة الذين عكفوا على أرضهم ، وصوروا نضال الانسان فيها من أجل التقدم دون تعصب للجنس أو اللون .

ويختتم ميرسركوف دراسته القيمة بقوله ان الافريقى الزنجى الذى عاش هدفا للنكتة والضحك عدة أجيال يثبت اليوم تفوقه على جلاديه الذين تندروا عليه بالأمس وهو لا يثبت ذلك من أجل اثارة الضحك عليهم كما فعلوا هم ولكن من أجل أن يضحك هو مع أخيه ومواطنيه ضحكا صافيا خاليا من الحقد والاحتقار .. !

زوايا وأنباء :

● فى عدد يونيو قصة بعنوان « هزيمة الحب » للأستاذ فؤاد القصاص ، صدرها بمقدمة ذكر فيها أنها قصة بلا أسلوب ، وأنه اكتفى بالأحداث تتتابع .. لتحمل فى النهاية مضمون القصة ، ثم ترك الرأى فى تجربته للقراء والنقاد .

وحتى لا يلتبس الأمر على القارىء ، وكذلك حتى تستقيم مصطلحاتنا النقدية ، أكتفى بالاشارة الى أن « هزيمة الحب » بالصورة التى أرادها لها الكاتب ليست قصة قصيرة نتيجة لتزاحم الأحداث وتركيبها ، كما أنها ليست قصة بلا أسلوب . فأسلوبها خاص ومعروف ، وهو أسلوب القصة السينمائية أو مرحلة من مراحل القصة السينمائية تعرف باسم « المعالجة » ، اى ملخص المشاهد التى يفصلها

السيناريو باللقطات المتسلسلة المتوالية • ومن المعروف أن القصة السينمائية ـ أو ملخصها ـ تعتمد على سرد الأحداث والمواقف سردا مباشرا دون تدخل البيان أو البديع، ويفضل كتابتها بالفعل المضارع بصفة خاصة •

وقد جرت فى السنوات الأخيرة محاولات من هذا القبيل فى فرنسا فيما يعرف باسم الرواية الجديدة التى دعمت حركة الموجة الجديدة فى السينما ، وهى مدرسة تزعم أن بلاغة القصة فى تعريتها من بلاغة اللفظ واللغة ، أى تجريدها من التشبيه والاستعارة والتورية وغير ذلك من صور البيان والبديع ، مع الاكتفاء بتحليل الأحداث والمواقف • لكن هذه المحاولات لا تنطبق على ما فعله الأستاذ القصاص الذى حشد رواية طويلة فى بضع صفحات باسم التجديد ، وبالتالى فان « هزيمة الحب » ليست أكثر من ملخص أو معالجة لقصة سينمائية يمكن تفصيل السيناريو على أساسها ، على أن يتفق أولا على صلاحيتها للانتاج والتصوير !

● أخى بيل •• كتاب جديد أصدرته دار جولانسز الانجليزية ، ألفه جون فوكنر شقيق الروائى الأمريكى الراحل وليام فوكنر • وفيه يحكى جون عن الصبا والشباب فى حياة شقيقه التى قضاها كلها تقريبا فى الريف ، دون أن يغادره الا فى المناسبات القليلة مثل الاتصال بصحيفة أو بشركة سينمائية أو لتسلم جائزة أدبية كما حدث حين سافر الى السويد لنيل جائزة نوبل قبيل وفاته •

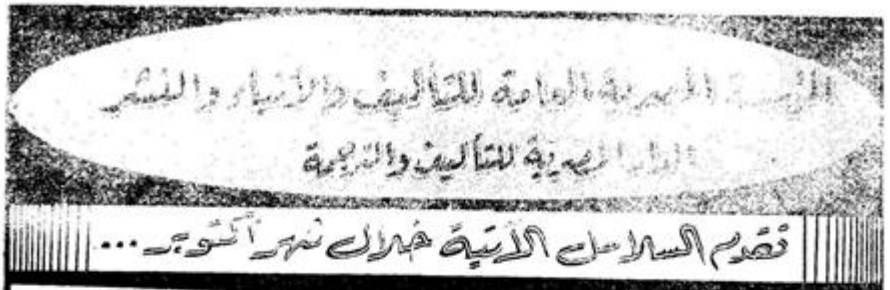

المكتبة الثقافية
العدد ١١٨
١٩٦٤/١٠/١

أضواء جديدة على الحروب الصليبية

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الثمن ٢ قرشان

تطلب من دار القلم ١٩ شارع سوق التوفيقية - القاهرة

روائع المسرح العالمي
العدد ٥٤
١٩٦٤/١٠/٦

زيارة السيدة العجوز

تأليف: فريدريش دورنمات - ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر

مراجعة الدكتور محمد محمد القصاص

الثمن ٥ قروش

تطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابي - القاهرة - ت ٤٦٣٨٢

تراث الإنسانية
المجلد العاشر من المجلد الثاني
١٩٦٤/١٠/٥

سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

الثمن ٥ قروش

تطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابي - القاهرة

أعلام العرب
العدد ٣٤
١٩٦٤/١٠/١٧

إسحاق الموصلي

الموسيقار القديم - تأليف الدكتور محمود أحمد الحفني

الثمن ٥ قروش

تطلب من مكتبة مصر ٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

مجلة الكتاب العربي
العدد السادس
١٩٦٤/١٠/١٥

المجلة التي تعرضه الكتب وتحللها بأقلام فئة ممتازة من الكتاب المتخصصين

الثمن ٣ قروش

تطلب من الباعة ومن المكتبة القومية ٥ ميدان عرابي

المكتبة الثقافية
العدد ١١٩
١٩٦٤/١٠/١٥

الأمم المتحدة "وحماية نظامها"

للدكتور سليمان محمود سليمان

الثمن ٢ قرشان

تطلب من دار القلم ١٩ شارع سوق التوفيقية - القاهرة